عبد الحميد يونس رائد علم الفولكلور

أ.د. مصطفى جاد*

عندما أكتب عن الدكتور عبد الحميد يونس.. فأنا أكتب عن عالم اقتربت منه لمدة عشر أعوام– بشكل شبه يومي– قضيتها مرافقًا ومعاونًا له في الفترة من عام 1979م حتى عام 1988، وهي السنوات العشر الأخيرة من حياته.

مئات الحوارات جرت بيني وبينه حول مئات الموضـــوعات والمواقف، التي ســـجلتها في كتاب "قصة التراث الشعبي العربي".. ما أريد أن أقوله هو أنني سأكتب عن رجل عرفته جيدًا واقتربتُ منه وتعايشتُ معه عشر سنوات، عرفت خلالها بعضًا من سيرة حياته، والعصر الذي عاش فيه، وحكى لي مئات التجارب التي حفلت بقصص نجاحات وانكسارات. حكى لي عن قصة فقد بصره عام 1926م وهو لم يزل في زهرة العمر. شاب يلعب الكرة ثم يرتطم بالأرض فيفقد بصره بقية العمر. ثم يدخل الجامعة، ثم يخرج منها بعد قصـــة عبثية أخرى قبل أن يحصـــل على ليسانس الآداب. ثم يلمع في عالم الصحافة. ثم يعود للجامعة، ويحصل على الليسانس، ثم يتفوق على جميع أقرانه ليصبح أستاذًا في تخصص هو الذي أنشأه ونبه العالم العربي له وهو "التراث الشعبي". ثم يؤسس لأجيال وتلاميذ أصبحوا من صفوة المجتمع العلمي، ثم يحصل على أعلى الجوائز والأوسمة في مصر والعالم العربي... ومع ذلك، فإن صراع الدكتور عبد الحميد يونس في الحياة لم يتلخَّص في القصص التقليدية حول مشكلة "كف البصر". صراعه الدائم ومشروعه الذي كافح من أجله حتى آخر نفَس في حياته كان محاولته الإعلاء من قيمة الإبداع الشعبي المصري والعربي ووضع الأسس للتعريف به وصيانته وحفظه.

عبد الحميد يونس في سطور

الدكتور عبد الحميد يونس (4 فبراير 1910 – 13 ســبتمبر 1988) مواليد جمهورية مصـــر العربية، محافظة الشرقية، مركز شلشلمون. هو رائد الأدب الشعبي بمصر والوطن العربي، وأســـتاذ علم الفولكلور. حصـــل على ليســـانس الآداب قســـم اللغة العربية من جامعة القاهرة

* العميد الأسبق للمعهد العالي للفنون الشعبية، بأكاديمية الفنون.

(1940). وحصل على درجة الماجستير في سيرة الظاهر بيبرس (1946). وحصل على درجة الدكتوراه في السيرة الهلالية (1950).

لن نستطيع أن نُلَخِّص إنتاجه العلمي ودوره في مجال التراث الشعبي العربي، فتراثه حافل بمئات الدراسات والمقالات في شتى الموضوعات منذ عقد العشرينيات من القرن العشرين.. وبعد أن حصل على الماجستير والدكتوراه عام 1950، ساهم في بحث المجتمع المصري من خلال كتابه الرائد "مجتمعنا" (1956). وكتاب التراث الشعبي (1979). كما أسَّسَ لبحث الأدب الشعبي والفولكلور من خلال كتابه الأدب الشعبي (1960). ودفاع عن الفولكلور (1973) الذي جمع فيه مجموعة من أبحاثه المميزة. نشر بعض الأبحاث التي أصَّل فيها لمناهج بحث التراث الشعبي منها: الدستور الدائم والتراث الشعبي (1971). الإبداع الشعبي (1987). الأدب الشعبي المقارن (1986). اهتم بصفة خاصة ببحث الحكاية الشعبية تأليفًا وترجمة، فصدر له: الحكاية الشعبية (1968). وترجم كتاب الأسفار الخمسة أو البنجاتنترا (1980). وحكايات كانتربري بالاشتراك مع الدكتور مجدي وهبه (1983). وحكايات أندرسن (1987). وحكايات من النوبة (1987). كما اهتم ببحث الأساطير فصدر له الأسطورة والفن الشعبي (1980). ساهم في تأصيل مفهوم الدراما الشعبية والمسرح الشعبي من خلال كتابه خيال الظل (1965). كما نشرت له أبحاث في الموضوع نفسه تحت عنوان مسرح الفولكلور (1969). والدراما الشعبية (1988). أشرف على عشرات الأطروحات العلمية في مصر والوطن العربي منذ الخمسينيات في مختلف مجالات الفولكلور والنقد والأدب العربي. وجميع كتبه صدرت لها طبعات عدة في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين. كما صدر عام 2007 المجلد الأول من أعماله الكاملة عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، وصدر المجلد الثاني عام 2010 (انظر ببليوجرافيا مفصلة عن أعماله في القسم الأخير من الكتاب).

اشترك عبد الحميد يونس في تأسيس وترجمة دائرة المعارف الإسلامية منذ عام 1933. انتدب وكيلًا لوزارة الثقافة لشئون الثقافة الجماهيرية وأنشأ "السجل الثقافي" الذي جمع وجوه النشاط الثقافي في مصر. تدرَّج في سلك هيئة التدريس حتى وصل إلى درجة أستاذ كرسي الأدب الشعبي بكلية الآداب، جامعة القاهرة 1957. يعود الفضل إليه في تأسيس مركز دراسات الفنون الشعبية الذي يقوم على الجمع الميداني وتصنيف التراث الشعبي وبحثه، وقد رأس مجلس إدارته وأشرف عليه عام 1978. ركز الدكتور عبد الحميد يونس نشاطه العلمي في الجامعة حتى أصبح رائدًا في الدراسات الشعبية في مصر و العالم العربي. وقام بالتدريس في معظم الجامعات العربية، وكأستاذ زائر في عدد من الجامعات الأوروبية. ومَثَّلَ مصر في العشرات من المؤتمرات

والمحافل الدولية في مجال الفولكلور. أسهم في تأسيس جمعية النور للمكفوفين حتى أصبح رئيسًا لها، كما أسهم في إنشاء المركز النموذجي للمكفوفين وجمعية النور والأمل للكفيفات.

ارتبط الدكتور يونس ارتباطًا وثيقًا بالصحافة، فقد أسهم مع المرحوم سلامة موسى في تحرير "المجلة الجديدة" و"مجلة المصري" ولم يقتصر عمله على المقال أو الترجمة أو القصة، ولكنه كان يشرف على بعض الأبواب الرئيسية في هاتين المجلتين. ورأس تحرير مجلة "الراوي الجديد" عام 1935. واتجه بها اتجاهًا أدبيًا نالت تقديرًا بالغًا من الطبقة المثقفة حينذاك. كما رأس تحرير مجلة العربي عام 1965. وأسس ورأس تحرير مجلة الفنون الشعبية عام 1964. وكتب ونشر الكثير من الفصول والدراسات في عدد من المجلات والصحف مثل: الجامعة، بناء الوطن، الأدب، الكتاب العربي، جريدة المساء، البلاغ اليومية، المصور.

حصل الدكتور عبد الحميد يونس على الكثير من الجوائز والأوسمة المصرية والعربية، منها جائزة الدولة في الموضوعات التي عرضها علي ماهر باشا رئيس وزراء مصر (قبل الثورة) عن البطالة ووسائل علاجها (1935)، كما نال وسام الجمهورية (1955)، وجائزة الدولة التشجيعية في النقد الأدبي (1958)، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (1959). ثم جائزة الدولة التقديرية في الآداب مع وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى (1980). ثم جائزة الكويت للتقدم العلمي (1985).

منهج بحث السير الشعبية العربية

تعد دراسات السير الشعبية العربية التي وضعها الدكتور يونس في عقد الأربعينات من القرن العشرين فتحًا علميًّا جديدًا- في هذا الوقت- استطاع من خلالها أن يجعل المجتمع الجامعي يعترف بأهمية الأدب الشعبي، وقد واجه عشرات الصعاب للموافقة على أن يسجل موضوعًا في سيرة الظاهر بيبرس أو الهلالية.. والدكتور عبد الحميد يونس لم يكن صاحب ريادة في هذا المجال فحسب؛ بل أيضًا صاحب منهج متميز في البحث والتحليل. حيث اهتم في أبحاثه حول السير الشعبية العربية برصد البعدين التاريخي والشعبي والموازنة بينهما ليستخلص في النهاية الأسس التي تم من خلالها انتخاب عناصر من التاريخ إلى الإبداع الشعبي.. وإذا ما استقر على بعض التفسيرات انتقل إلى النص الشعبي ليتناوله من الناحيتين النقدية والجمالية.. وقد اقترنت دراسات الدكتور يونس الأولى بمنهج تاريخي متميز من خلال كتابه الأشهر "الظاهر بيبرس في القصص الشعبي". وهذا الكتاب هو تلخيص لرسالته في الماجستير التي كانت بمثابة الريادة الأولى التي اخترق بها أسوار الجامعة (1946).

ونستطيع أن نلمح بوضوح منهجه التاريخي الذي كشف عن الفوارق التي أحدثتها السيرة بين النص الشعبي والتاريخ، ومن ثم فهو يشرح في السطور الأولى من المقدمة الخطوط الفاصلة بين القصص الشعبي والتاريخ، كاشفًا عن السبب الذي جعل الشعب ينتخب شخصية الظاهر بيبرس ليتغنى بوقائعه وأفعاله، مشيرًا إلى أن "الفرق بين القصص الشعبي والتاريخ واضح، فالأول ينشد ما يجب أن يكون، والثاني يفتش عما كان. وإذا كان القصص الشعبي ينزع دائمًا إلى التخصيص والتفصيل، فإن التاريخ يُحكّم المنطق ويبحث عن المقدمات والنتائج فيجنح إلى التعميم والإجمال. ولعل الظاهر بيبرس الذي انتخبه الشعب من بين الأبطال ليتغنى بوقائعه وفعاله، كان في نظره المنقذ له الذي طال توقعه، ليتم ما بدأه صلاح الدين الأيوبي من تصفية آثار الحروب الصليبية أو لينقذ العالم بأسره من ذلك المد المغولي (الظاهر بيبرس، ص6).

رواة السيرة الظاهرية

ثم يشرح الدكتور يونس الفرق بين هذه السيرة والسير الأخرى والرواة المشهورين بترديدها. فيعرض في الفصل الأول للبحور الخمسة التي تتألف منها السيرة الظاهرية شارحًا لكل منها بالتفصيل وهي: الأكراد الأيوبية، الظاهر بيبرس – الفداوية – أمراء البحر – الخرافة. وفي الفصل الثاني "فن المحدّث المحترف" يركز فيه المؤلف على مدى التقارب بين الممثل المسرحي والمحدّث في القصص الشعبي، وعلاقة كل منهما بالجمهور، مؤكدًا على أن التفاعل بين القصاص – شاعرًا أو محدّثًا – وبين جمهوره بالغ القوة، وأن هذا التفاعل في القصص الشعبي أعمق من أثر النظارة في الأدب المسرحي.

ويشرح بعد ذلك مقومات المحدّث للسيرة الظاهرية من حيث قدرته على احتراف التمثيل وطريقته في الرواية وإنشاد الشعر في بعض الأحيان مستعينًا بربابته. والفصل الثالث يعرَض لوصف الأبطال، ومن الطبيعي هنا أن يبدأ بشخصية الملك الظاهر بيبرس، وهو في عرضه لأبطال السيرة يركز على الملمح التاريخي من ناحية وما أسبغه الشعب على هذه الشخصيات من ناحية أخرى.

وفي عرضه لشخصية الظاهر بيبرس نجده يعرض لنا– بمنهج المؤرخ المدقق– لشخصية بيبرس في التاريخ منذ ميلاده حتى توليه العرش.. متعرضًا لبطولاته التي سجلها له المؤرخون حتى وفاته عام 676هـ الموافق 1277م. ثم اجتهد ليفتش من خلال الحدث التاريخي عن تفسير لانتخاب الوجدان الشعبي للظاهر بيبرس كبطل شعبي في السيرة، وآخر فصلين في الكتاب

يعرَض فيهما المؤلف لحوادث السيرة وأسلوب سردها، حيث يحدد الأحداث التي وقعت من الناحية الجغرافية ويلخص هذه الأحداث وكفاح أبطالهما في البر والبحر.

وفي إطار حديثه عن أسلوب السيرة الظاهرية يعرض الدكتور يونس لمكانتها من الأجناس الأدبية، ثم يعرَض بالنقد والتحليل لأسلوبها سواء من ناحية النظم الشعري، ومدى التفاوت بين بعض الأبيات والبعض الآخر في الوزن والقافية من زجل أو موال، أو من ناحية النثر وأداة الوصف، مشيرًا إلى السجع الواضح في طريقة السرد القصصي وعلاقة هذا كله بالذوق العام.

التاريخ الجماعي في بحث السيرة الهلالية

والدراسة الثانية التي تكشف عن ريادة الدكتور يونس في توظيف المنهج التاريخي في الأدب الشعبي جاءت من خلاله كتابه "الهلالية بين التاريخ والأدب الشعبي"، وهو رسالته في الدكتوراه التي كانت غزوًا جديدًا لأسوار الجامعة (1950)، حيث تأسس بعد ذلك بفترة قصيرة "كرسي الأدب الشعبي" بكلية الآداب جامعة القاهرة (1957). ويعلن في السطور الأولى أنه سيبحث السيرة بين التاريخ والأدب الشعبي. حيث مهد الدكتور يونس لكتابه ببحث عن الأدب الشعبي والوجدان الفردي الجمعي، ثم يقول: إن منهجنا في الجانب الأدبي إنما هو منهج النقد الأدبي وهو مغاير بعض المغايرة لما سبق أن عالجنا به "سيرة الظاهر بيبرس" لأن دراساتنا وتجاريبنا قد جعلتنا أكثر قدرة على التحصيل والتذوق والحكم، ومن القائلين بالتعبيرية في الفن.. هذا الاتجاه المنهجي عند الدكتور عبد الحميد يونس يذهب دومًا نحو البحث عن الأصل أو المنشأ.. فهو يستخدم المنهج التاريخي مباشرة للتعرف على الكيفية التي تم بها إبداع النص الشعبي.. وهو عندما يبدأ في التحليل النقدي لابد أن يعود للعناصر التي وردت بمنشأ النص حتى يستطيع – كما يقول – أن يرصد مدى المطابقة بينها وبين ما أنتج من صور التعبير.

وكتاب "الهلالية بين التاريخ والأدب الشعبي" مقسم إلى جزئين، الأول: يحمل عنوان "الهلالية في التاريخ"، حيث يتتبع فيه النسب الهلالي منذ العصر الجاهلي بدءًا من قيس عيلان ونسبه حتى تصل شجرة النسب إلى "هلال"، ثم امتداد هذه الشجرة في العصر الإسلامي من "هلال" حيث تتفرع عنها "رزق" و"سلامه" المشهور بأبي زيد الهلالي، و"سرحان" و"دياب بن غانم" وهم أقطاب التغريبة الهلالية الشهيرة. ثم يشرح المؤلف التطورات المختلفة التي تعرضت لها المنطقة العربية بعد الإسلام مثل إحلال الدين محل العصبية في بنائها الاجتماعي، والواقع التاريخي للغزوة الهلالية الكبرى، مشيرًا إلى أن أهم معلم في طريق كل من يتصدى لتأريخ سيرة بني هلال وأقدمه

في الوقت نفسه هو ابن خلدون في مقدمته وتاريخه على السواء، ثم يشرع في عرض نظريته ابن خلدون الأدبية التي أوردها نقلًا عن غيره.

والجزء الثاني من الكتاب يحمل عنوان "الهلالية في الأدب الشعبي" ويبدأ بفصل يلخص فيه السيرة الهلالية من الجيل الأول وميلاد أبي زيد.. ثم الجيل الثاني والريادة.. ثم التغريبة الهلالية الكبرى للوصول إلى تونس والتي يقودها أبطال بني هلال: الحسن بن سرحان وأبو زيد ابن رزق الهلالي ودياب بن غانم والقاضي بدير والجازية.. ثم الجيل الثالث المشهور بجيل الأيتام.

وبعد مرور أكثر من سبعة عقود على كتابة هذه الدراسة.. نؤكد على أن رؤية الدكتور يونس الثاقبة للهلالية هي التي بقيت وهي التي تحققت.. فلا تزال الهلالية هي السيرة الوحيدة التي تُردد حتى الآن.. بل إنها سُجلت ضمن التراث الشفاهي العالمي بمنظمة اليونسكو. مما يؤكد لنا أن الرؤية العلمية لهذا الرائد العظيم لا زالت هي الأساس الذي يمكننا أن نستمد منه بقية البناء

منهج بحث الحكاية الشعبية العربية

تعددت اهتمامات الدكتور عبد الحميد يونس في مجال بحث الحكاية الشعبية العربية.. ولم يقف فقط عند مجرد تحليلها والكشف عن عناصرها وتصنيفها.. بل اتسع اهتمامه بربط العلاقة بين الحكاية الشعبية العربية ونظيراتها في الإبداعات العالمية. ويتجلى منهج الدكتور عبد الحميد يونس في بحث الحكاية الشعبية العربية من خلال كتابه القيم الذي لا يزال مصدرًا رئيسيًا في بحث هذا النوع الأدبي، وهو كتاب "الحكاية الشعبية"، الذي صدر عام 1968 بإهداء قال فيه: "إلى الشعب الفنان والناقد.. أهدي هذه الصفحات منه وإليه".

والحق فإن كل فصل في هذا الكتاب يمكن أن يؤلف منه كتاب مستقل بذاته. فيبدأ ببحث عن مكانة القصص في الأدب العربي، يخلص في نهايته إلى تعريف الحكاية الشعبية وخصائصها، ثم ينتقل إلى شرح الأصول الأسطورية للحكاية الشعبية، وتتعرض باقي فصول الكتاب لأنواع الحكاية الشعبية وهي بالترتيب: حكاية الحيوان–حكاية الجان–السير الشعبية–حكاية الشطار–الحكاية المرحة–الحكاية الاجتماعية– حكاية الألغاز. ويلاحظ في هذا التصنيف للحكايات الشعبية ورود السيرة الشعبية ضمن الحكايات باعتبار السيرة حكاية شعبية طويلة ذات حلقات. ثم يقف عند الفروق الفنية بينها والأنواع الأخرى من الحكايات، مؤكدًا على عالمية الحكاية الشعبية وتشابه النصوص بين الثقافات المختلفة.

ويعلق الدكتور يونس– في نهاية الكتاب– على المناهج المختلفة التي تناولت الحكاية الشعبية قائلا: "لا تزال المناهج تتفاوت في الحكم على هذه الحكايات من حيث الأصول ومن حيث

طرق الهجرة ومن حيث القدرة على التأثر والتأثير ومن حيث البناء الفني..وحسب الشعب أنه سيظل يعتصم بحكايات كلما حزبه أمر وحفزه موقف..إنها بالنسبة للشعب صمام أمن وعصا توازن ووسيلة تعبير وتذوق (الحكاية الشعبية، صـ 104).

يبقى الإشارة إلى أن اهتمام الدكتور عبد الحميد يونس ببحث الحكاية الشعبية قد تجاوز الاهتمام بالتنظير المصري والعربي إلى الاهتمام بالحكاية العالمية في إطار المنهج المقارن، ومن ثم اجتهد في ترجمة أربع دراسات من الإنجليزية للعربية في مجال الحكاية الشعبية صدرت جميعها في عقد الثمانينات، الأولى مجموعة حكايات البنجاتنترا (1980)، والثانية مجموعة حكايات كانتربري (1983)، والثالثة مجموعة حكايات أندرسن (1987)، والرابعة مجموعة حكايات النوبة (1987)

المنهج الأسطوري في بحث الفولكلور

عندما تخصص الدكتور يونس في مجال التراث الشعبي كتب مجموعة دراسات متنوعة حول الفولكلور والميثولوجيا، وحول القمر في أساطير الشعوب. ولم يخل كتاب له عن التعرض للأسطورة. ففي كتاب "التراث الشعبي" تعرض للأسطورة وأهمية دراستها وسجل أن الأسطورة تفرض نفسها على مناهج التراث الشعبي. وفي كتاب الحكاية الشعبية– الذي عرضنا له منذ قليل– خصص فصلًا كاملًا تناول فيه الأصول الأسطورية للحكايات الشعبية مشيرًا إلى أن الباحث لا يستطيع أن يدرس الحكاية الشعبية دون أن يعالج الأسطورة وأن تستقر في خلده دلالتها ووظائفها، كما تعرض للأسطورة في كتابه حول الأسس الفنية للنقد الأدبي، وتناول الأسطورة في سياق تحليله لحكايات كانتربري..

واستعان يونس بالمدرسة الأسطورية في تفسير بعض العناصر الشعبية فربط بين استهلال الأغنية الشعبية بعبارة (عين يا ليل) والإله السومري (إين ليل).. كما ربط بين شخصية الجازية في السيرة الهلالية وإيزيا أو إيزيس في الأسطورة المصرية.. وتتبع عناصر وشواهد متعددة في العادات والتقاليد والطقوس في علاقتها بالأساطير.

أما الكتاب العمدة الذي خصصه لبحث الأسطورة في علاقتها بالفولكلور، فهو كتاب "الأسطورة والفن الشعبي"، وقد قسمه إلى مقدمة وخمسة فصول. ويبحث في الفصل الأول "الفولكلور والميثولوجيا" التعريف الدقيق للمصطلحين والعلاقة التي تربط بينهما، فالأسطورة عريقة من حيث المادة والعلم وهذه العلاقة جعلتها وثيقة الاتصال بالعناصر الفولكلورية على مدى التاريخ

الإنسـاني.. ثم شـرع في بحث مداخل متعددة حول أسـاطير الشـمس والقمر والزهرة، والشـكل القصصي للأسطورة، والأسطورة بين الرمز والمعتقد الشعبي، والرمز الأسطوري للأسد.

منهج بحث الدراما الشعبية وفنون الأداء

قدم عبد الحميد يونس شرحًا للمفاهيم المتعلقة بأشكال الفرجة الشعبية، والتي لا تزال تمثل منهجًا علميًّا تأثر به الكثيرون في مجال دراسـة الظواهر الشـعبية التمثيلية، كما اسـتعان به المهتمون بحركة المسرح العربي الحديث ممن استلهموا عناصر التراث الشعبي على خشبة المسرح. ويري الدكتور يونس أن الدراما الشعبية أبدعها الشعب نفسه لأهداف تتجاوز ما تواضعنا على تسميته باللذة الفنية إلى طلب الصحة والإقبال على الحياة وحمايتها من الذبول والانحراف. وإذا كنا نريد الرقي بأذواق الجماهير فإن علينا أن نتعرف على الدراما الشـعبية كما ظهرت في أرضـنا لكي نتحقق من أنها ليست نباتًا وافدًا يحتاج إلى بنية خاصة ووسط خاص.

فقد عايش الدكتور يونس في النصف الأول من القرن العشرين كيف كان راوي السيرة الشعبية يقوم بأدائها وسط جمهور المقاهي.. وسجل لنا تفاعل القصاص مع جمهوره الذي يصفه بأنه تفاعل بالغ القوة.. فقاص سـيرة الظاهر بيبرس يطلق عليه اسـم "المحدث المحترف"، وسـجل الدكتور يونس مشاهداته مع واحد من هؤلاء المحدثين في مقاهي القاهرة في تجربة رائدة ميدانيًا. كما رصد أداء المنشد المحترف للسيرة وقارن بينه وبين المحدث المحترف للسيرة الظاهرية.

ويتوقف يونس في رحلته العلمية وأبحاثه في فنون الفرجة عند أشكال أخرى من الفرجة الشعبية التي اشتهرت في البيئة المصرية، وهي صندوق الدنيا والقره كوز وخيال الظل، ويلفت النظر – في منتصف الستينات – لهذه الفنون ويقوم على تصنيفها وتعريفها وفك الاشتباك بين كل منها، واضعًا إياها تحت مسمى عام هو "التمثيل الشعبي غير المباشر"، ويتناول في كتابه الرائد "خيال الظل" مسرح خيال الظل من خلال مشاهداته الميدانية أيضًا، حيث يصف عروض الخيال في المقاهي، كما يصفهم في دور العرض الثابتة والمتخصصة بفن الخيال، والتي يصفها "بالمسرح الليلي المقفل". ويتناول في كتابه عددًا من الموضوعات المهمة التي تؤصل لفن خيال الظل من حيث النشـأة والتطور والموطن القديم ومراحل النضـوج– كما يعرض لخيال الظل والمسـرح وعنصر التصوير. وأخيرًا يرصد شخصية الشاعر الساخر والكاتب المسرحي محمد بن دانيال الموصـلي (646–711هـ) الذي اشـتهر بتأليف بابات خيال الظل التي تعرف بالتمثيليات الدانيالية،

وقد ارتبط مفهوم الدراما الشعبية عند الدكتور عبد الحميد يونس بثلاث دراسات تحمل الاسم نفسه وهو "الدراما الشعبية". الدراسة الأولي: نُشرت بمجلة المسرح عام 1969 ثم أعيد نشرها بمجلة الفنون الشعبية عام 1970 ثم اختيرت ضمن مجموعة الدراسات التي يضمها كتابه الشهير "دفاع عن الفلولكلور" عام 1973.. وهو ما يؤكد أهمية هذه الدراسة ومكانتها من الريادة في هذا المجال. وقد تناول فيها الفن المسرحي والتعبير الدرامي وأصول الدراما الشعبية وجذورها لدى الإنسان البدائي.. كما سجل العلاقة بين الفن الدرامي وجميع المظاهر والرموز التي لها علاقة بالتمثيل، مشيرًا إلى أن الحفلات الصاخبة في أعياد الطبيعة وما يشبهها، والطقوس شبه السحرية التي يعتصم بها الفلاحون إلي الآن، لها قوامها الدرامي الذي يستوعب الكلمة والإيماءة والإيقاع والمادة المشكلة جميعًا، وتعد من أجل ذلك الأصول المباشرة والحية للدراما الشعبية. وفي دراسته المعنونة: "الدراما الشعبية". التي نشرت بعد وفاته مباشرة- عام 1988- يشير يونس إلى أن الدراما وإن اتصلت بالحدث أو الفعل في دلالاتها القديمة، فإنها ليست تصويرًا للفعل فحسب، وإنما هي الفعل نفسه، غير أنه أهتم في هذه الدراسة برصد المضامين الدرامية التي تصدر عن الوجدان الشعبي.

كما اهتم بالإشارة إلي استلهام المؤلفين للتراث الشعبي في إبداعهم المسرحي، وفي نهاية الستينات (1969) نشر الدكتور عبدالحميد يونس مقاله الرائد "مسرح الفولكور"، ويعد هذا المقال امتدادًا لاهتمامه منذ الأربعينيات بدراسة الأداء وفنون التمثيل، غير أنه يلفت الانتباه هنا إلي أهمية تنفيذ مشروع مسرح الفولكلور، فيؤكد علي صفة الارتجال في مسرح الفولكلور – وإن اختلف عن المسرح الارتجالي – فضلًا عن أن مسرح الفولكلور يعتبر فاصلًا بين الأداء وساحة الجماهير، ولكن برامج مسرح الفولكلور تستوعب الفن المتطور والفن المستلهم من التراث الشعبي والإشارات الصامتة والحركات الموقعة، بالإضافة إلى الأغاني الفردية والجماعية والموسيقي الخالصة التي تحتفظ بأصالتها الشعبية.

الاتجاه الموسوعي في بحث التراث الشعبي

لعل أهم تجربة موسوعية قام بها الدكتور يونس هي ترجمته لدائرة المعارف الإسلامية **Encyclopedia of Islam** مع زملائه الذين تصدوا لهذا العمل الضخم في فترة مبكرة. وهم الأستاذ إبراهيم زكي خورشيد، والدكتور محمد ثابت الفندي، والأستاذ أحمد الشنتناوي. وقام على تصنيف دائرة المعارف الإسلامية وجمع موادها نخبة من أساتذة الغرب في تخصصات الحضارة الإسلامية المختلفة. وهي موسوعة أكاديمية تُعنى بكل ما يتّصل بالحضارة الإسلامية، سواء من

الناحية الدينية أو الثقافية أو العلمية أو الأدبية أو السياسية أو الجغرافية على امتداد العصور، بما في ذلك العصر السابق للإسلام. وكان أول إصدار لهذه الدائرة بين عامي 1913 و1938 قد ظهر في أربعة مجلدات وملحق للفنون، ثم بدأت تتوسع في عدد مجلداتها وتتصدر مكانتها العالمية بعد ذلك، وفي عام 1954 بدأت لجنة من المستشرقين المحدثين بإشراف كراموز وجيب وبرنارد لويس في إخراج طبعة جديدة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ويتم إصدارها من قبل شركة بريل الهولندية. وقد ظهرت هذه الموسوعة بأكثر من لغة.

ولعل الدارسين في المنطقة العربية لتاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة لا يستطيعون حتى اليوم أن يغفلوا الرجوع لدائرة المعارف الإسلامية كمصدر أصيل في هذه الناحية، حيث وجدوا فيها موادًا تقوم على التوثيق العلمي الموضـــوعي لتاريخ المنطقة.. والمتأمل في هذه الدائرة العلمية سيلاحظ أنها اعتمدت اعتمادًا كليًّا على المصادر والمراجع العربية والإسلامية التي تزخر بها مكتباتنا في أنحاء المنطقة. وقد توسل أصحابها بالترتيب الهجائي المتبع في دوائر المعارف العالمية.

أما التجربة الثانية فهي وضعه لـــــ "معجم الفولكلور"، وتعود أهمية هذا المعجم إلى كونه يمثل المحاولة العربية الأولى لتأليف معجم عربي في علم الفولكلور، يعرض مصـــطلحات العلم ومفاهيمه، في إطارها العالمي والعربي في آن. ويشـــير الدكتور عبد الحميد يونس إلي الإطار الموضـــوعي الذي اعتمده في جمع مادته بقوله "فرضـــت طبيعة الموضـــوع أن أجمع في هذا المعجم كل ما استطعت الحصول عليه من المواد الفولكلورية المشهورة في ربوع العالم المأثورة في مصر والعالم العربي، والتي حفرت لها مكانًا في ذاكرة الشعوب، وما سجله المؤرخون في الحضارات القديمة والوسطى والمعاصرة. ولا يدعي أحد أن القيام بمعجم خاص بالفولكلور مهمة سهلة.. إن المصطلحات مرنة، تتشكل مدلولاتها، وهي تختلف باختلاف البيئات والأجيال. ومثل هذا المعجم إنما هو عمل تجريبي، أو ريادة لطريق غامض، مع طوله وعرضـــه، وحسبي أني بدأت الخطوة الأولي في هذا السبيل (معجم الفولكلور، صـ 6).

ويغطي المعجم حوالي 1200 مادة، غلب عليها الاهتمام بالمعتقدات وبالأســـاطير في مختلف البيئات والأحقاب.. ويهتم بضبط مصطلحات العلم في أقسامه العامة.. ويرتبط منهج عرض المادة في المعجم بتتبع مدلولاتها في أكثر من بيئة وأكثر من عصر وأكثر من معتقد كلما أمكن. وقد حرص الدكتور يونس على وضع كشاف بمواد المعجم مرتب بالحروف اللاتينية، إذ أن مواد المعجم جميعها قد أورد لها المؤلف الترجمة الإنجليزية لها، وهي إضـــافة جديدة في إطار التعريف بمصـــطلحات العلم، كما اتبع المعجم أيضًـــا أسـلوب الإحالات المرجعية للإحالة من

مصطلح غير مستخدم لمصطلح مستخدم. مثال: الغجر: انظر النوري – مأجوج: انظر يأجوج ومأجوج – مأثورات شعبية: انظر فولكلور.

المنهج النقدي في بحث التراث الأدبي والاجتماعي

تعد الدراسة الرئيسية في النقد الأدبي للدكتور يونس فكانت من خلال كتابه الذي حصل فيه على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام 1959، وهو كتاب "الأسس الفنية للنقد الأدبي". ويبدأ الكتاب بمقدمة طويلة يشرح فيها الدكتور يونس معنى كلمة "فن" ويتتبع المصطلح ومفهومه لغويًّا وتاريخيًّا، ثم يلقي الضوء في الفصل الأول على مفهوم "النفع العام"، حيث يبين الأساس النفسي والمصالح الجماعية العامة التي قامت عليها نصوص الأدب العربي بصفة عامة والأدب الجاهلي بصفة خاصة، واستعرض رأي علماء الإنسان والنفس والفن في مسألة السحر الذي يستهدف صالح الجماعة، وبعض المظاهر الفنية التي تقصد مباشرة إلى استثارة الروح المعنوي، ثم تتبع مفهوم الحكاية والتمثيل على أساس أنهما المعول الأول الذي يقوم عليه الفن الجميل، ويصحح هنا الخطأ الشائع من معني الحكاية بأنها قصة أو نبأ، فيورد المعني الدقيق المقصود من الحكاية وهو "المحاكاة" ويطبق ذلك على فن الشعر والفن التشكيلي.

ثم ينتقل للحديث عن الحرفة والصناعة فيقول: ".. لسنا نريد في مطلع هذا الفصل أن نبسط القول في التكسب بالفن أو اتخاذه كغيره من الجهود والصناعات وسيلة من وسائل الاحتراف، وما نتج عنه من تأثير في مفهوم الفن الجميل. ولكننا نؤثر أن نتحول إلى الصناعة لنوازن بينها وبين العمل الفني (الأسس الفنية للنقد الأدبي، صـــ 48). ويعرض بعد ذلك لمفهوم التسلية والترفيه في الفن، ثم يفصل القول– في ثلاثة فصول متتابعة– في بحث المثلث العام للفن: الإبداع الفني–الفنان–التجربة، ويختتم كتابه بالحديث عن اللغة الفنية والذوق الفني لدى المتلقي.

أما دراسة الدكتور يونس التطبيقية في النقد الأدبي فكانت من خلال تناوله لبعض الأعمال القصصية التي قدم لها في كتابه "فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث"، وكتابه "في الأدب المغربي المعاصر".

لم يتوقف الدكتور يونس في دراساته النقدية عند بحث التراث الشعبي الأدبي والرسمي فقط، بل قدم للمكتبة العربية بعض الدراسات التي يمكن تصنيفها في مجال النقد والبحث الاجتماعي.. مثل ترجمته لكتاب "الزواج" للعالم الأنثروبولوجي إدوارد وسترمارك، وكتاب "مجتمعنا" الذي نُشر مطلع الستينات وأعيد طبعه عام 1998 أي بعد ربع قرن من نشره. ويستحق هذا الكتاب أن يوضع على قائمة إنتاج الدكتور عبد الحميد يونس في النقد والأدب والفولكلور سواء من حيث

الأهمية الموضـوعية أو السـبق الزمني. وقد اسـتعان الدكتور يونس بالمنهج النفسـي والتاريخي والأسطوري للكشف عن ملامح الشخصية المصرية.

دفاع الدكتور يونس عن الفولكلور

"دفاع عن الفولكلور" هو العنوان الأشـهر في حركة بحث الفولكلور العربي.. ونحن نسـتعين به لنعرض قصة اختيار الدكتور يونس له.. وقصة الدراسات المتنوعة التي احتفل بها الكتاب، مما شـكل في النهاية جانبًا مهمًا من اتجاه الدكتور يونس الفكري حول النظرة الراقية لعلم الفولكلور، والتصـدي بقوة لتلك النظرة المتدنية التي تصـنف الفولكلور ضـمن الرجعية والتخلف.. وهو يرد على صـــديقه الدكتور لويس عوض في هذا الاتجاه.. وهي نقطة أردنا أن نســـجل من خلالها محاولات الرجل في الدفاع عن التخصـص الذي أصـبح له الآن مدارسـه وأكاديمياته وجامعاته التي تدرسه.

فيشـرح بداية العلاقة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والفولكلور، ثم يقف على عدد من القضـايا التي لا نزال حتى الآن نرتبط بها، مثل إنشـاء مركزًا عربيًا للفولكلور ومعهدًا للفنون الشـعبية، ثم مكانة الفولكلور بين العلم والتكنولوجيا، وقضية صيانة التراث الشعبي، وهي قضايا تحقق بعض منها الآن ولا يزال جانب منها في حاجة إلى شحذ الهمم لإتمامها..

وقد وقف الكتاب على عدة موضـوعات لا تزال تحمل صـك الريادة لدى أسـتاذنا، مثل دراسـاته حول مفهوم البطولة وسيرتي عنتر بن شداد وأبو زيد الهلالي وجحا.. ثم دراسته التي تحتاج الآن إلى إعادة نشر في ظل الظروف السياسية الراهنة والتي تحمل عنوان "القدس في الأدب الشعبي"، ودراســـاته حول الفنون الشـــعبية في وادي القمر وأرض الفيروز، فقد كانت نموذجًا للتســـجيل الميداني لفولكلور سيناء من أدب ورقص وأزياء وعادات وتقاليد وغيرها، كما يدخل ضمن دفاعه عن الفولكلور تقديمه للعديد من المقالات والدراســـات المبســـطة التي تعرف بالمجال وتقربه للجمهور العام..

ومن بين هذه المحاولات كتابه المهم الذي ظهر في نهاية عقد السبعينات وكان له بالغ الأثر في مجال علم الفولكلور والترويج له رغم صـــغر حجمه، وهو كتاب "التراث الشـــعبي" الذي نشـــر ضـمن سـلسـلة "كتابك"، والذي جاء غاية في التركيز الشـديد والبسـاطة الشـديدة أيضًـا، وكان الدكتور يونس ينوي– قبيل وفاته– وضـــع كتاب موســـع يســـتعرض فيه أنماط التراث الشـــعبي بالتفصـــيل مع ضـــبط المصـــطلحات التي قد يقع فيها الباحثون.. ويعد هذا الكتاب ملخصًـــا لمشروعه الذي لم يتمه.